المقتطف

الجزء السابع من السنة العاشرة

نيسان (ابريل) ١٨٨٦ = الموافق ٢٦ جمادى الثانية ١٣٠٣

فتاوي الحكماء في الخلود والفناء

للباحث بن العصر بجانب ابي الهول واهرام مصر (١)

التوطئة

حكى الباحث بن العصر قال : أَنِسْتُ طوارقَ الحدثان وشغلتُ بالعلم عن غوائل الزمان حتى انشب الدهرُ ظفرشرّهِ وأبدل خَلَّة بجرهِ فأَبهتُ لخلو وختره وحذرتُ بوائق مكره وغدره فودّعتُ الاحبّة والكرام وقلتُ على الشام واهلها السلام وخرجتُ نتقاذفني لجّات الغمر وتترامى بي ايادي الدهر حتى انيتُ ديار مصر الغنّاء واحييتُ زهرةَ الأمل في رياضها الفيحاء فخلتُ بين نخيٍ رحبوا بالغريب وأرحبوا المنازل وصحبٍ ضحّبوا النضائل وأصحبوا بالتواضل امتازوا في الشرق صفوةً صافية وفاقوا بالمعارف الوافية والعوارف الضافية وكنتُ اقضي جلاء يومي انتقّد المصانع والمشاهد وانتقّد الآثار والمساجد حتى اضحى طَرْفي من رونقها الباهر حاسرًا وعقلي ممّا ترك الاوّل للآخر حائرًا . ولمّا تمّ لي فيها حَوْل . طلبتُ اهرام الجيزة وابا الهول فاتيتها والنيل يشفي من الارض غليلاً ويترقرق على ضفاتها سلسبيلاً والنسيم يلثم وجناتها عليلاً والظلّ يسترها عن العين ظليلاً والسحب تنشر فوقها بُردًا ثقيلاً والعشب يكسو اهدابها سندسًا خيلاً مدبّجًا بالازهار تدبيجًا جميلاً والورق تهدر كأنها تبكي خليلاً والنخل ارخى ذوائبه سقيًا نخيلاً تحوّم عليه الغربان وتنعق عويلاً

ولمّا وقفتُ بجانب الاهرام وقد رسَت في الارض كالاعلام وعصت على اياب الدهر وتخالب الايام فهرعت دونها الاحقاب والاعوام طفقتُ اردّد فيها آراء العلماء واقوال

(١) ان للباحث بن العصر مقالات شتى سبقت هذه وأدرجت في ماضي من سني المقتطف منها (أمادة النفس ام جوهر مجرّد) واخرى (هل الانسان حرّ الارادة) واخرى (في العلة والمعلول) واخرى في (الضمير والآداب) واخرى (محاورة في الذاكرة)

اساتذة فن البناء وعلا جاش النفس فانشدتُ فيها قول بعض واصفيها(٢)

أمباني الاهرام كم من واعظٍ صدّع القلوبَ ولم يَنُهْ بلسانهِ
إذ كرتني قولاً نقادمَ عهدهُ ابنَ الذي الهرمانِ من بنيانهِ
هنّ الجبالُ الشامخاتُ تكادُ أن تمتدّ فوقَ الافقِ عن كيوانهِ
لو أنّ كسرى جالسٌ في صحنها لأجلّ مجلسهُ على ايوانهِ
ثبتت على حرّ الزمانِ وبَردهِ مُددًا ولم تأسَفْ على حدثانهِ
والشمسِ في احراقها والريحِ عندَ هبوبها والسيلِ في جريانهِ
هل عابدٌ قد خصها بعبادةٍ فبباني الاهرامِ من اوثانهِ
او قائلٌ يقضي برجعةِ نفسهِ من بعدِ فرقتهِ الى جثمانهِ
فاختارها لكنوزهِ ولجسمهِ قبرًا ليأمنَ من اذى طوفانهِ
او انها للسائراتِ مراصدٌ يختارُ راصدُها اعزّ مكانهِ
او انها وضعت بيوت كواكبٍ احكام فرسِ الدهرِ او يونانهِ
او انهم نقشوا على حيطانها علمًا يحارُ الفكرُ في تبيانهِ
في قلبِ رائيها ليعلمَ نقشها فكرٌ يعضُّ عليهِ طرفَ بنانهِ

وما زلتُ اطوف بها واتدبّر اعاليها وجوانبها حتى قضيت مُنى النفس منها واستوعبتُ ما يحكيهِ مجاوروها عنها فاتيتُ ابا الهول فهالني بضخامتهِ وراعني بإحكامهِ وفخامتهِ وبينا انا اتامل كِبرَهُ واقصُّ على النفس خبرهُ انا شيخ جليل الشيبة بادي الهيبة قد اطبق يدهِ سنرّهُ واطرق الى الارض يحصّ فكرًا فدنوت منهُ متطفلاً وطارحتهُ السلام وَجِلاً فردّ التحية مستأنسًا واحتفز ليهبّ لي مَجلسًا فقلت عفوًا يا مولاي فقد اتّبعت في ازعاجكَ هواي اني فتىً شُغِف بحب المعارف وبذل دونها التليد والطارف وقد شمتُ فيكَ سماتِ اهل العلم وأرى في عينيك انقاد الذكاء والفهم واني منذ اتيت هذه الاهرام ما فتئت أردّد فيها اقوال العلماء الاعلام وانّ ابا الهول هذا حجة على انها لخلود بيت لحفظ الاجساد الى يوم البعث والخلود واسمع ان الخلود امنى خرافة لا يعبأ بها اولو الحصافة فان علماء هذه الايام اثبتوا فسادهُ بلا ابهام فلئن صدقوا فاساس هذه المباني الفخيمة اماني كاذبة وآمال فارغة عقيمة والشوق في صدور الناس الى الخلود خضراء دِمَن او اضواء تشبُّ بين اللحود(٣) مبنية

(٢) هو القاضي فخر الدين عبد الوهاب المصري (٣) هي انوار تظهر كأنها السنة من لهب طالعة من الارض وتشاهد في المقابر ونحوها والشائع انها انوار غير روحية او كهربائية توافقها الاحوال فتظهر هناك

اضغاث احلام(٤) ومصيرهُ الى فناء الفناء والاوهام فلم ابرق نفس هذا الوهم في النفوس الزيادة الحسرات وتشديد البؤوس

فقال الشيخ سبحان الله كيف تتوارد الخواطر اذا انتفت النواظر في الخاطر اجلس يا بني واصل سمعك الي اني شيخ عرك الزمان واهله وجاب حزنه وسهله ووعى في صدره معارف الاقدمين وخاض عباب علوم المحدثين وانت ترى ان جرف العمر كاد ينهار وشمس الحياة ادركت آخر النهار فاني افكر في مصيري واعدُّ للرحيل اموري وقد اتخذت نجنب ابي الهول محل القعود لعلاقة تعلقها بينهُ وبين الخلود(٥)

ثم استأنف الكلام فقال اني لا احذ وحذو الفلاسفة في كلامي عن الخلود فانتهُ من نزاعة النفوس اليهِ او ما شاكل من الادلة العقلية العارية عن القضايا العلمية الطبيعية فان علماء هذا الزمان قد جردوا نصال ادلتهم القاطعة من اغماد الطبيعة الساطعة فلا يقبلون برهانًا الاَّ اذا كانت الطبيعة اساسهُ وكان بالادلة الطبيعية مبناهُ . نعم ان فرقةً منهم انكرت وجود النفس مجردة عن البدن ونفت الخلود على ما قلت لي ولم تثبت البقاء الاَّ للجواهر التي تبنى الاجسام منها والقوى التي لا تنفك تلك الجواهر عنها(٦) على ان العلم لا يؤيد دعواها اكثر مما يؤيد دعوى القائلين بالخلود بل انهُ في جانب هولاء اقوى وادلتهم اولى بهِ وأحرى . وعليَّ ان آتيك بادلة مقنعة على ان العلم لا ينافي الخلود وان الخلود ممكن خلافًا للذين ادعوا انهُ محالٌ . وامكان الخلود نثبتهُ باثبات امرين الاول وجود كون غير منظور اوسع من هذا الكون زمانًا ومكانًا وبرهاننا عليهِ مبنيٌّ على قضايا علمية مقرَّرة . والثاني ان الكون مأهول باحياء عاملة اعني انهُ كون روحيٌّ ودليلنا عليهِ قياس التمثيل . واذا قلت ان دليلنا عليهِ قياس التمثيل لان العلم لا يدرك شيئًا من طبائع الكون الغير المنظور ولعلهُ لن يدرك منها شيئًا ولذلك لا يمكننا الحكم بخلود الارواح فيهِ بالبرهان القاطع اذ وجود الكون الغير المنظور لا يستلزم وجود الارواح وخلودها فيهِ . فتبقى مسألة الخلود في حيز الامكان لا القطع

واما الذين ينكرون امكان الخلود فاما ان ينكروا معهُ وجود الكون الغير المنظور او لا . فان انكروا وجود الكون الغير المنظور فهم محجوجون بالادلة العلمية المثبتة وجودهُ . وان لم ينكروا

(٤) اشارة الى ما يذهب اليهِ كثيرون اليوم وهو ان الاحلام اصل اعتقاد الناس بالارواح وبقائها بعد الموت

(٥) يقال ان ابا الهول صنع تذكارًا لحورس الآخذ بثار ابيهِ اوسيريس من عمهِ تيفون اوست . وتحرير الخبر ان اوسيريس كان ملكًا من اقدم ملوك مصر واسمهم فكاد عليهِ اخوهُ ست وقتلهُ . ثم حملت امرأة اوسيريس منهُ بعد موتهِ على ما زعموا وولدت حورس ولما كبر قاتل عمهُ وقتلهُ فصنعوا لذكرى ثاره الاَّ راسهُ راس انسان وجثة جثة اسد هي ابو الهول رمزًا الى انهُ ربض كالاسد بعد قتل عمهِ يتطلع الى المشرق متوقعًا ثيامة ابيهِ من الموت ورجوعهُ من مشرق الشمس

(٦) هم الماديون وفلسفتهم شهيرة وعصبتهم قوية

وجودهُ فهم محجوجون بانهم يدّعون ما لا يقدرون على اثباتهِ فانكارهم لامكان الخلود يقتضي انهم يعرفون ما في الكون غير المنظور معرفة تجيز لهم ذلك الانكار وقد بانَ ان معرفة ذلك محال او ثانيًا المحال . فثبت ان الخلود محتمل وان العلم لا ينفي احتمالهُ

ثم اذا ثبت امكان الخلود بقي علينا ان نعزّز وقوعهُ بالقياس التمثيلي العلميّ على ما تقدم . وهذا كلامٌ اجمالي ابسطهُ لك مفصلاً واسرد عليك الادلة المثبتة لهُ على ما اقتطفتها من اشهر علماء هذا الزمان وادراهم بغوامض الطبيعة ومخبآتها (٢)

مذهب الارتقاء وحرّيّة العلماء

يُحكى ان الذئب اضمرهُ الجوع واضناهُ الهزال فلقي الكلب ممتلئ البدن كثير السِمَن فقال لهُ سبحان مقسّم الحظوظ فان السمن قد اثقل حركاتك وانا اتضوّر جوعًا وقد اضناني الهزال فقال لهُ الكلب تعال انزل ضيفًا عليّ فاقاسمك في مآكلي ومشربي واساكنك في منزلي فذهبا معًا . ثم حانت من الذئب التفاتة فرأى عنق الكلب ملطاء قد ذهب الشعر عنها فقال ما الذي اصاب عنقك قال امر لا يذكر فانما هو اثر الطوق الذي يطوقني بهِ اصحابي ليلاً فانهم يطعموني نهارًا ثم يربطونني لاحرس منزلهم ليلاً . فلما سمع الذئب ذلك ولّى عنهُ وهو يقول اهنأ بعيشك مريًّا فانا انا من يشتري الطعامَ بالحرية ولا خير في لحم ورفاق دونهما الذل والاسترفاق

و يلوح لنا ان اكثر ذوي الاقلام في هذه الايام يرهنون اقلامهم وآراءهم لميل غيرهم فتراهم يطوون على نصرة الحق كشحًا ويجارون على الخطإ ولو خالف اعتقادهم . واذا سألتهم قائلين انأتفعل ذلك حبًّا بالمسالمة واجتنابًا لاضطراب البال فانحن مكلفين بالدفاع عن الحق في هذه المسألة فليدافع غيرنا عنها . ومن البلية ان هذه سياسة كثيرين من ارباب الجرائد ومشرب السواد الاعظم من الناس ولا سيما في المشرق . فكم من أناس يلومون رجلاً اطاع صوت ضميرهِ وانتصر لما يعتقد صدقهُ مخالفًا فيهِ لقول الكثيرين . ولو تتبّعت ملامهم الى غايتهِ لوجدتهُ ملامًا على الصواب بموّهونهُ بمثل هذه الاقوال ان فلانًا غير حكيم ولم يدارِ سياسة هذا الحزب ولا راعى تعليم تلك الفئة بل قد حملتهُ شجاعتهُ الادبية على مطاوعة ضميرهِ وابراز ما استكنّ في خاطرهِ . ولو حاورتهم في ذلك لوجدت لسان حالهم يقول ان المسالمة مقدّمة على ما سواها واجبة ولو مات الحق فداها وهذا زعم فاسد لا يقبلهُ من عرف تاريخ الناس واسباب تقدّم البشر . فلا خير في المسالمة اذا كان الحق يموت دونها ولا كان الاتفاق اذا جُعل على البطل اساسهُ

(٢) مثل العلّامتين الانكليزيين سنورث وتات وغيرهما